

من إعجاز القرآن

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

كتب الكاتبون قديماً وحديثاً في إعجاز القرآن ، ولكن ليس كمثل الأمثلة العملية الواقعية يبان لذلك الإعجاز . ومن أحدث هذه الأمثلة وأعجبها ما وقع من الدكتور زكي مبارك أو « الكاتب المجهول » كما يسمى نفسه في العدد ٣٥١ من الرسالة

والدكتور زكي مبارك كبير الإعجاب بنفسه يظن أنه أحاط بالأدب العربي من أطرافه : أطراف النثر وأطراف الشعر ، فلم يدع لكاتب ولا شاعر شأواً معه . تعرف ذلك في دعاواه الطويلة المريضة التي ينثرها عيماً وشمالاً بغير حساب فيما يكتب من مقال ، وما يؤلف من كتاب ، كأنما أراد أن يكون المثل المنجم لقانون التمويض النفسي في الأدب ، فهو يموض نفسه عما فاته من ثناء الناس بالمبالغة في الثناء على نفسه ، وهذا شيء لم يكن يفهم لولا أن إعجاب الدكتور بنفسه انقلب فيه غروراً ، وأن الغرور بلغ منه حداً جعله يتناول إلى مقام القرآن الكريم ، يشكك في إعجازه تارة ، ويكاد يصرح أنه من كلام البشر تارة أخرى ، ويدعو إن بتطبيع وإن بتصریح إلى تناول القرآن بالنقد ، كأنما يظن أن ذلك في مقدوره لولا أن المسلمين لم يستمدوا بمد لتلقى كل ما عند الدكتور

وسولت له نفسه أن يكتب مقاله « أعوذ برب الفلق من شر ما خلق » ، ولأمر ما رأى أن يوقعه بغير اسمه

ولكنه نسي نفسه حين أمن أن يعرف قرى بها عوراء مخزية حين كتب : « أما بعد ، فأنا لا أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، وإنما أعوذ برب الفلق من خير ما خلق ، وهو الجلال » . لملك لو فتشت عن قلبه حين كتب هذا لوجدته مسروراً به ، يرى أنه جاء بطريف وهذا خذلان الله لكل

من يلحد في آياته : يخفى عنه الغلظة المنكرة لا تخفى على العاوى من الناس .

والغلظة المنكرة هي جهله أن كلمة « شر » في الآية الكريمة اسم لا أفعال تفضيل ، وأن الفرق بين معنى الآية كما فهمها وبين معناها كما أنزلت كالفرق بين الجاد والحي ، والإعجاز وغير الإعجاز

وإذا أدرك زكي مبارك غلطته لحاول أن ينكر أن (شر) في جملته أفضل تفضيل كذبتة كلمة (خير) في نفس الجملة ، إذ لا شك مطلقاً في أن (خير) في جملته تلك أفضل تفضيل جاء في مقابلة « شر » أفضل التفضيل الآخر في أول الجملة . إن كلمة شر إذا كانت اسماً مضافاً إلى ما الموصولة ، كما هي في الواقع في قوله تعالى (من شر ما خلق) في السورة الكريمة المعروفة ، شملت كل شر لكل مخلوق ، فالاستمادة بالله من شر ما خلق على هذا الوجه هي استمادة تامة كاملة لم تدع موضعاً لاستدراك مستدرك ولا للعب لاعب . فإذا أراد مغرور أن يلعب باللفظ نظراً واستطرافاً سقطت سقطته الدكتور زكي مبارك . قد يكون الجلال خير ما خلق الله وقد لا يكون ، لكن إذا كان للجلال شر يخشى ويستماذ بالله منه فقد دخل في الشر المطلق شر كل مخلوق خلقه الله ، وهو ما أمر الله الإنسان بالاستمادة منه برب الفلق ، فلا داعي هناك قط إلى تموز جديد من الجلال أو من غير الجلال

فانظر الآن إلى ما يطرأ على المعنى من التغيير والتضيق والنقض بجمل (شر) أفضل تفضيل كما فهم صاحب النثر الفنى . لقد انفتح له بذلك من ناحية باب الاستدراك فقال إنه لا يعود من شر ما خلق الله ولكن من خير ما خلق وهو الجلال . ومن ناحية أخرى صارت الاستمادة على هذا الوجه مقصورة على شر أكثر خلق الله شراً ، وتركت ما عدا ذلك من شر كثير حراً طليقاً يصيب من الإنسان ما شاء . فأى استمادة هذه التي ترك المتمرد عرضة لأكثر الشر في جملته ، أو لشر كثير على أقل